الأدب العربى

ما هو ، وما تاريخه ، وكيف كان تدوينهما ؟

للأستاذ السباعى بيومى
أستاذ تاريخ الأدب بكلية دار العلوم

ما هو ، وما تاريخه ؟

إنه لحرى بنا قبل التعرض للتعريف بالأدب أن نعرض لكلمة الأدب نعالجها مفردة غير منسوبة لشىء ، معالجة تساير بها منذ الطفولة إلى أن اكتمل معناها وصار إلى الحد الذى نعرفه لها الآن ، والذى عنده وقعت نسبتها إلى اللغة حتى إذا ما تعرضنا لمعنى الأدب نكشف عنه ونبين الغرض منه كان قولنا واقعاً على أساس وألفينا ذلك المعنى سهل المأخذ على آذاننا وطيد الاستقرار فى أذهاننا .

ولعل أول معنى عرف لكلمة الأدب هو وقوعها مصدراً لأدب يأدب اللازم من باب ضرب بمعنى صنع طعاما يحتفل به ويدعو إليه والاسم من ذلك المأدبة : على أن هذا الفعل استخدم من الباب نفسه ـ ويغلب أن يكون ذلك فى الوقت عينه ـ بمعنى دعا إلى مأدبته ومن ذلك قول طرفة بن العبد ويستشهد به على المعنيين

نحن فى المشتاة ندعو الجفل لا ترى الآدب فينا ينتقر

يقول نحن فى المشتاة أى الجدب ندعو الدعوة العامة وهى الجفلى فلا ترى الآدب فينا أى صانع المأدبة أو الداعى إليها ينتقر فى دعوته أى يختص بها فريقا دون غيره ، والنقرى ضد الجفلى .

مكثت الكلمة على هذا المعنى بشعبتيه السابقتين العصر الجاهلى كله تقريبا ، حتى إذا ما كان قبيل الاسلام تخطت متعدية ومن باب ضرب أيضاً إلى معنى آخر هو التهذيب والرياضة فقيل أدبه يأدبه بمعنى هذبه وثقفه . كما قيل أدبه بالتشديد على سبيل المبالغة والتكثير بمعنى علمه وبمعنى عاقبه على إساءة ، لأن العقاب مما يحقق معنى الأدب على هذا الوجه ، وهو كل رياضة محمودة يتخرج بها الانسان فى فضيلة من الفضائل ، ومن ذلك قول عتبة بن ربيعة لابنته هند وهو يصف لها أبا سفيان بن حرب بعلا على غير تسمية « يؤدب أهله ولا يؤدبونه » ، وقولها فى الجواب عن ذلك « إنى لأخلاق هذا لوامقة وإنى له لموافقة وإنى لآخذته بأدب البعل مع لزوم قبتى وقلة تلفتى » .

ولما أن جاء الاسلام بتعاليمه الداعية إلى مكارم الأخلاق انتشر هذا المعنى وشاع ، وأكثر الناس استعماله أيما إكثار وبخاصة بعد أن قال النبى صلى الله عليه وسلم « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » . ثم توسعوا فى كلمة الأدب فأطلقوها على كل ماله أثر فى التهذيب وحضوا لذلك على التأدب بالمأثور ولا سيما الشعر لما فيه من الدعوة إلى المكارم والتسابق إلى المحامد كما قال عمر ابن الخطاب لابنه رضى الله عنهما « يابنى انسب نفسك تصل رحمك واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك » وكما قال معاوية « اجعلوا الشعر أكثر همكم وأكثر آدابكم فان فيه مآثر أسلافكم ، ومواضع إرشادكم » . وكما قال عبد الملك ابن مروان لمعلم ولده « أديهم برواية شعر الأعشى ، فانه قاتله الله ما كان أعذب بحره وأصلب صخره » . ولقد ازدادوا توسعا فى معنى تلك الكلمة حتى جعلوا الأدب يشمل ناحية الرذيلة كما شمل الفضيلة لأن فى تناوله الأولى بالترغيب عنها والتبغيض فيها حضا غير مباشر على الترغيب فى الثانية والتحبب إليها ، ثم بالغوا فى هذا التوسع حتى شمل الأدب المأثور جميعا ، وبهذا انتقلت كلمة الأدب إلى معنى الظرف فى الخلق وحسن التناول للقول ، كما انتقلت كلمة

التأديب إلى العمل فى سبيل ذلك ، وطاوعتها كلمة التأدب حتى قيل أدبت فلانا فتأدب ومن ثم نشأ الفعل أدب يأدب من باب كرم فعل السجايا والطباع وأطلقت كلمة الأديب على ما حسن أدبه وبدأ ظرفه كما قال سالم بن وابصة من قصيدة يحض فيها على مكارم الأخلاق .

إذا شئت أن تدعى كريماً مكرما أديباً ظريفاً عاقلا ماجداً حراً
إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالا لزلته عذراً

ومن هنا بدأت كلمة الأدب تنحرف عن معناها اللغوى إلى هذا المعنى الاصطلاحى .

ولما أخذ القوم فى مزاولة بعض العلوم من دينية ولسانية آخر العهد الأموى ، انحازت هذه الكلمة إلى حذق علوم اللغة لما لها من الأثر فى تقويم اللسان واستكمال أداة البيان ، ثم كان تقدم العلوم وارتقاء المعارف أيام الدولة العباسية ، بما حدث من تقسيم وتفصيل ، واستجد من ترجمة ونقل ، فجعل التأديب مهنة تصدى لها المؤدبون وتصدرهم فيها الأئمة من الرواة والعلماء وقصر الأدب على مأثور اللغة من شعر ونثر ، وعكف الناس على دراسته بهذا المعنى حتى وضعت له كتب خاصة عرفت بكتب الأدب كما عرف غيرها بكتب الدين مثلا ، وجارت كلمة الأدب فى ذلك كلمة الأديب فوسم بها كل من حذق الأدب على هذا الوجه . وعرف من سائر العلوم ما هو للأدب وسيلة أو للأدب به علاقة وله منه فائدة ، إذ لا يجمل بالأديب أن يكون من غير الأدب عاطلا ، فإن الأدب ثقافة خاصة لها حاجة وبها افتقار إلى أن ترتكز على ثقافة عامة بدونها يقل بهاء الأدب وتذهب حلاه ، ولكنهم مع هذا لم يتجاوزوا كثيرا مأثور اللغة فى رواياته المنبثة على أيدى الرواة ، وفى شرحه والافادة منه على أيدى الأدباء ، فبقيت كتب الأدب ما بين كتب رواية تخلص للمأثور مجردة ، إلى كتب رواية تبحث فى معناه إجمالا أو تفصيلا على

ماقد يشوب هذه الأخيرة من أبحاث لغوية أو نحوية وصرفية تخرجها عن الناحية الأدبية الصرفة وتجعلها بالانتساب إلى الناحية العلمية أحرى .

بهذا استمرت الأبحاث جامدة عند معنى الأدب دون تاريخه الذى لا يتحقق بغير التحليل والاستنباط ، وتتبع أطوار المأثور بأنواعه ضعة وارتفاعا ، وتلمس العلل لذلك والأسباب ، والانكباب على دراسة البيئات من عامة وخاصة لمعرفة ما أنتجته فى ذلك التاريخ من آثار ، إذ تاريخ الأدب وهو حياته يعتريه ما يعترى حياة الأمم فى كل مظاهر التاريخ السياسى العام ، نعم إن المتقدمين فى ذلك العهد العباسى و بعده قد عالجوا أبحاثا هى من تاريخ الأدب فى الصميم ، كالموازنة بين شيء فى عهدين أو بين شاعر وآخر جملة أو فى قصيدين ، وكالكلام فيما طرأ على اللغة بالاختلاط ، إلا أن ذلك لم يتناول فى مجموعه كل ما لحياة الأدب من تاريخ ، كما لم ينسجم مرتبا فى سلك النظام الذى ينبغى أن تكون عليه تلك الأبحاث ، فلم يزل تاريخ الأدب على تلك الحال من النقص فى بعض وجوهه ، وانتثاره على غير شخصية قائمة فى بطون الكتب ، إلى أن هب المستشرقون يضعون أسسه ويرفعون قواعده ، وتوافروا على أبحاثه يثبتون أصولها ويفرعون الكثير من فروعها إلى أن أوصلوه إلى صورة متميزة قائمة ، فاذا هو كما نراه الآن علم ذو نظام وترتيب وتقسيم وتبويب ، وكان لهم فى ذلك طريقان ، إما دراسته موضوعا موضوعا يتنقلون بكل موضوع من عصر إلى عصر حتى يستتم أطواره ويستكمل ألوانه وهذا على غنائه قليل ، وإما دراسته عصرا عصرا يتناولون فى كل عصر موضوعات الأدب واحدا واحدا كما هى الحال فى التاريخ السياسى العام وهذا هو المتبع والكثير .

فعل المستشرقون ذلك وحينما أنشئت دار العلوم على نظارة على مبارك باشا للمعارف المصرية إذ ذاك كى تنهض باللغة العربية فى بلد انتهت إليه زعامة الناطقين بالضاد ، كان لزاما أن يكون الأدب وتاريخه من أول ما يعنى

بدراسته فى هذا العهد الجديد وفعلا كان فمهد بذلك أول الأمر إلى طائفة من الأدباء لعل أكثرهم غناء كما هو بلا شك أبقاهم أثرا المرحوم الشيخ حمزة فتح الله صاحب المواهب الفتحية باكورة ما ألف بالعربية فى هذا الباب ، لكن الشيخ طيب الله ثراه نظر إلى الأدب كأنه فن لا يستند إلى علم أو كأن دراسته بعيدة عن تاريخه كافية فى تكوين الأديب ، فنهج فى مواهبه نهجا هو إلى دراسة الأدب أقرب منه إلى دراسة تاريخه ، فإنه لم يكد ينتهى فى كتابه من تصديره ببضعة أبحاث عامة فى اللغة على الطراز القديم حتى انتقل إلى المأثور يؤدب به الطلاب تأديبا جعل دعائمه الأربع ، القصائد فالمحاكات فى الشعر ثم الرسائل فالخطب فى النثر ، فشرح عشر قصائد أجرى بعدها عشر موازنات ثم ساق من بعدهما عشر رسائل أتبعها بمثلها من الخطب ، دون أن يتقيد فى ذلك بعصر معين أو يجرى على سنن خاص ، إذ كان يهمه كما سبق الالمام بطائفة من المأثور تشرح وتدرس كما يتطلب المعنى ويقتضى الاستطراد ، على أنه لا يبعد أن يكون رحمه الله قد سيق إلى ما فعل لا مدفوعا بتلك النظرة بل بما تملكه من حب القديم يجرى على سننه ويهتدى بهديه ، وبخاصة إذ وجد طريقه معبدة أمامه ، فى حين كان الجديد لا يزال مغلق السبل غير واضح الأعلام ، ولهذا لم تكد دراسة الأدب وتاريخه تسند إلى المرحوم حسن أفندى توفيق أحد أبناء دار العلوم الذين زاولوا التعليم والتعلم حقبة فى ألمانيا مهد الاستشراق عامة وفى العربية خاصة حتى أبرز لنا صورة لتاريخ الأدب هى على صغرها يصح أن تكون بحق النموذج الأول فيه ، ويجب على كل دارس له من بعده مهما أبدع وفصل أن يكون موقفه منه موقف الحريرى فى مقاماته من البديع حيث يقول على سبيل التمثيل :

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج لى البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم

كيف كان تدوينهما

عرف الأدب بمعناه الاصطلاحى البدائى فى صدر الاسلام كما تقدم، ولما جاء العهد الأموى فاقت عناية الخلفاء به كل عناية ، وشغلت من نفوسهم المحل الثانى بعد المهام السياسية إن لم يكن الأول معها، ذلك بأنها عون عليها وبأنهم رأوا تثبيت ملكهم فى إحياء العصبيات ، فكان فى هذا إحياء الأدب القديم مع الجديد وإعادة مذاكرته ومدارسته بعد أن ألهى عنه صدر الاسلام حتى كاد ينسى، وقد توج هذه العناية بالنجاح الباهر والمحصول الوافر أن كان الخلفاء أنفسهم من كبار الملمين باللغة والأدب ، العارفين لمحاسن الكلام ووقائعه ، الراغبين فى ألا تخلو مجالسهم من حوار فيه ونقاش ، فان هذه الأشياء مجتمعة — ومعنا غيرها منهم — حملت أرباب الكلام على العناية بالقول والاحتفال بتجويده قبل إهدائه اليهم ، كما حملت رواة الأدب على أن يلموا بالكثير الذى يحسنون عرضه ويجيدون تقليبه ، فتولد بذلك ضرب رشيق من الحوار الأدبى تم نضجه واستوى على يد شيخ تلك الحلبة الخليفة النابه عبد الملك بن مروان حيث هدأت بيده عواصف الفتن واستقرت بسياسته أمور الدولة ، ففاض عهده بهذا اللون من الحوار الأدبى الذى شغل فراغا كان يشغله من قبل، الحوار السياسى فى عهد معاوية، واستمر مطردا فى عهد أولاد عبد الملك من بعده ، وكلهم أديب بارع وبحاثة عالم فأنتج الآثار الأدبية التى ملأت كتب الأدب وعادت على اللغة بوافر الغلات .

بهذا الصنيع وأمثاله من الخلفاء الأمويين ومن قلدهم فيه من الأمراء والولاة وسائر الناس شعراء وأدباء ، انتشرت الرواية وكثر الرواة ، كعامر الشعبى خاصة عبد الملك ، وحماد الراوية جليس ابنه هشام ، ولكن ماروى فى العصر الأموى كله بقى غير مقيد فى كتاب ، حتى إذا ما جاء العصر العباسى

ودخل الاسلام كثير من الأعاجم الذين تعلموا لغة العرب وجدت الحاجة إلى التوسع فى قواعد النحو والصرف للتحرر من الأخطاء ، كما وجدت أيضا إلى الاكثار من الرواية للشواهد والمرانة ، ودفع الحرص على هذين الأمرين معا إلى تدوين المأثور . وهنا حبب بعد مواطن العباسيين عن البرارى الى طائفة من فصحاء العرب والأعراب التردد على حواضر العراق ، لمد الرواة والمتعلمين بالمأثور ، لقاء ما ينالون جزاء ذلك من رزق ومال

فكان من أشهر هؤلاء الأعراب الفصحاء بالبصرة ، أبو البيداء الرياحى وأبو مالك بن كركرة ، وأبو الجاموس بن يزيد ، وأبو عدنان بن عبد الأعلى ، وشبيل بن عرعرة الضبعى ، وكان من أشهرهم بالكوفة ، أبو خيرة بن زيد ، وأبو المحلم الشيبانى . ولقد تعدى سيلهم المصرين المذكورين إلى بغداد فكان منهم فيها أبو زياد وأبو ضيغم الكلابيان ، وأبو شبل العقيلى ، والفقعس الأسدى ، بل تجاوزوا بغداد إلى خراسان كأبى العميثل مؤدب الطاهريين فى مرو .

لم نعرف لهؤلاء الأعراب المرتحلين ، ولا لغيرهم ممن لم يرحلوا عن البادية وإنما كان الرواة يرحلون إليهم ، شيئا من الكتب عن أدبهم ولكن الرواة دونوا هذا الادب فى العصر العباسى الاول فكان مرجع الناس من نحاة وأدباء ، ومن أشهر هؤلاء الرواة المدونين أبو عمرو بن العلاء الذى أخذ عنه كل علماء عصره وكانت دفاتره إلى السقف فنسك وأحرقها كما قال صاحب فوات الوفيات ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى صاحب نقائض جرير والفرزدق ، والشعر ، والشعراء ، والأصمعى عبد الله بن قريب صاحب الأصمعيات ورجز العجاج وعشرة كتب غيرها فى الانسان والحيوان والنبات والجماد ، وأبو زيد الأنصارى صاحب النوادر فى اللغة وكتاب المطر واللبن ، والقاسم بن سلام صاحب غريب الحديث وغريب المصنف وفضائل القرآن والمواعظ والأمثال وغيرهم

وهناك طائفة من الرواة غلبت عليهم رواية الشعر، وأشهرهم حماد الراوية جامع المعلقات ، والضبى صاحب المفضليات ، وخلف صاحب كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر ، والشيبانى جامع أشعار القبائل ، وكل هؤلاء من رجال الطبقة الأولى فى العصر العباسى الأول ، وقبل أن ينتهى هذا العصر نشأت به طبقة ثانية كان من دأب رجالها أن يجمعوا بين الروايات ويفاضلون بينها ، منهم محمد بن سلام صاحب طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين، وأبو زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى صاحب جمهرة أشعار العرب ، وكلاهما صدر كتابه بمقدمة باسقة الطول تكلم فيها كثيرا عن الشعر واللغة كلاما انتقاديا له فى عالم الأدب مكان واعتبار ، وقد حادت هذه الطبقة الثانية فى كلامها عن الأكثار من اللغة كما حادت الطبقة الأولى عن الاكثار من النحو حيدة جعلت الأدب يتميز منهما ويتحقق له ما تحقق من الشخصية والمكان

٢ — ولما جل العصر العباسى الثانى أخذ الأدب يستقل عن النحو واللغة إلا لماما وأخذ يعنى بالمأثور وبالكلام عليه شرحا وتعليقا كما يعنى بالأخبار التى تتعلق بالأدباء أنفسهم ، ثم حدث أن جلا الأدباء فى أوله عن المصرين البصرة والكوفة للاحداث التى نزلت بهما من الزنج والقرامطة إلى بغداد التى استبحر فيها العمران وكانت الكتب المترجمة عن الأدب الفارسى وغيره قد أنارت للناس سبل التأليف فتغيرت بذلك كله وجهة الأدب وظهر هذا التغير فى أمور .

منها فى المأثور ، تجاوز الرواية إلى التدبر فى المروى بما يحلل معناه تحليلا ينتهى بحكمة أو عظة ، ومنها فى الخبر جمع أشتات الأخبار على اختلافها مع ترتيبها أبوابا فى كل باب طائفة ، ومنها فى غير ذلك الميل الى تدوين الحكم وأخبار الحكماء ومنافع العدل وسير العادلين والحث على الاقتداء بهم ، ولعل

الدافع إلى هذا الميل ظهور فساد الحكم فى ذلك العصر عصر الخدم الاتراك وتوالى ظلمهم حتى على الخلفاء ، فاصطبغت كتب الأدب بهذه الألوان وغيرها مما توخاه الأدباء فى التصنيف ، فالجاحظ وهو إمامهم وفاتح الفتح فى هذا اللون من التأليف له كتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، وكتاب البخلاء وكتاب أخلاق الملوك وكتاب تنبيه الملوك ، وكتاب سحر البيان وكتاب طبقات المغنيين وكتاب العرافة والزجر عند العرب وكتاب الفراسة عند الفرس ، إلى غير ذلك من الكتب الممتعة التى تجاوزت الثمانين سوى الرسائل الكثيرة المتنوعة فى شتى الموضوعات الطريفة . وابن قتيبة وهو المقفى الجاحظ فى هذا الباب له من هذا اللون كتاب عيون الأخبار فى عشرة أجزاء وكتاب أدب الكاتب وكتاب الشعر والشعراء وكتاب المعارف وكتاب الأمامة والسياسة فى التاريخ العام وكتاب الشراب والأشربة وكتاب التسوية بين العرب والعجم وكتاب تفضيل العرب وهكذا . وقدامة بن جعفر هو ذو الفتح المبين فى النقد المنطقى كما يتجلى ذلك فى كتابه نقد النثر ونقد الشعر الى غير هؤلاء من أدباء هذا العصر المؤلفين وإنهم لكثير .

٣ — ولما حل العصر العباسى الثالث جاء على الأدب وتاريخه خيرا وبركة وظهر ذلك جليا فى ناحيتين هامتين من الأدب هما النقد والقصة .

فأما النقد فقد انتشرت روحه وتعددت موضوعاته بعد أن فتحه فى العصر الثانى قدامة بكتابيه المذكورين ، فكان فى أدبائه من انتقد الرواية والأخبار كأبى الفرج فى كتابه الأغانى أضخم كتب الأدب وأحفلها بمواده وأجمعها التراجم الشعراء والمغنيين ، وكان منهم من انتقد الشعراء كحسن بن بشر الآمدى المتوفى سنة ٣٧١ فى كتابه الموازنة بين أبى تمام والبحترى حيث لم يترك لكليهما شيئا مما يقوله متعصب له أو عليه إلا أورده فى أسلوب جدلى ممتع ونقاش حصيف ، وكالصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ فى كتابه مساوى

المتنبى وقد كان شديد التحامل عليه فيه لعدم مدحه إياه حين طلب اليه ذلك على أن يشاطره ماله، وكعبدالعزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٩٢ فى كتابه الوساطة بين المتنبى وخصومه حيث تصدى لدحض ماذكره الصاحب وغيره من سائر الخصوم ، فانتصف للمتنبى انتصافا مؤيدا بالحجة والبرهان . كما كان فيهم من انتقد الكلام انتقادا مبينا على قوانين البلاغة التى وضع بعض قواعدها فى العصر الأول وتمت فى الثانى واطرد نموها فى الثالث ، كأبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٣ فى كتابه الصناعتين الكتابة والشعر ، فقد ملأه نقدا مؤسسا على ضوابط الفصاحة والبلاغة فى الأساليب والمعانى ، بل كان فيهم من طبق ذلك كله على كتار الكتاب ونوابغ الشعراء ،كالثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ فى كتابه يتيمة الدهر وفى كثير من كتبه الأخرى المعروف منها نحو الاربعين ، كالاعجاز والايجاز ، وخاص الخاص ، ونثر النظم وحل العقد وشمس الادب فى استعمال العرب ، والكناية والتعريض ، والنهاية فى الكناية وأجناس التجنيس وسحر البلاغة وغرر البلاغة إلى غير ذلك .

وأما القصة التى أحياها فى العصر العباسى الأول ابن المقفع بترجمته كليلة ودمنة، ونماها بعده فى نفس العصر من اقتفوا أثره فى ترجمة هذا الكتاب كعبد الله بن هلال الاهوازى الذى ترجمه ليحيى بن خالد فى خلافة المهدى أو فى نظمه كأبان بن عبد الحميد اللاحقى الذى نظمه ليحيى هذا أيضاً ، ثم زادها تنمية من جاءوا من محبى القصص فى العصر العباسى الثانى كالجاحظ فى كتابه البخلاء وغيره مثلا ، فقدجاء العصر العباسى الثالث ناهضا بها مرقيا لها ، إذ فيه بدأت ترجمة ألف ليلة وليلة لمترجمه الأول المجهول الذى تبعه فى الزيادة عليه بالوضع فيه قصاصون آخرون كثيرون ، وفيه وضعت القصة الحماسية كقصة البراق الفارس الربعى المعروف من كتاب الجمهرة لعمر بن شية

المتوفى سنة ٢٦٢ فى حروب ربيعة ، وكذا القصة الغزلية العذرية كقصة جميل العذرى مع صاحبته بثينة .

٤ - ولما جاء العصر الرابع اطرد رقى النقد والقصة .

فأما النقد فكان من أصحه وأمتعه فى هذا العصر ، ما وقع من عبدالقاهر الجرجانى فى كتابيه الخالدين « دلائل الأعجاز » و « أسرار البلاغة » ، وكان من طريفه وأمتعه ما جاء للموصلى فى كتابه « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » الذى أجاد فيه نقد الألفاظ والمعانى عاتبا على أهل عصره تنكبهم طريق الأدب الحق وراسما لهم المهيع الذى ينبغى أن يكون .

وأما القصة فقد جاء منها فيه كتاب أسمار العرب والعجم لأبى عبد الله محمد بن عبد ربه الجهشيارى الذى جمع فيه ألف سمر كل سمر قائم بذاته لا يعلق به غيره فى أربعمائة ليلة وثمانين ليلة ، وقصة عنتر الحماسية التى وضعها للعزيز الفاطمى الشيخ يوسف بن اسماعيل وكذا القصة الغزلية الأباحية كقصة عمر بن أبى ربيعة مع عشيقاته الكثيرات .

على أن القصص الغرامية نمت فى هذا العصر نمواً كبيراً وتنوعت تنوعاً أكبر ، فقد ألفت أيامه قصص فى مغرمات النساء لتقابل القصص الموضوعة لمغرمى الرجال ، بل ألفت قصص للغرام بين الانس والجن كان المحب فيها الرجل أو المرأة من هؤلاء تارة ومن هؤلاء أخرى .

وقد عالج العرب فى هذا العصر نفسه نوعا من القصص غير ما أسلفنا رموا فيه إلى عرض نظرية علمية أو فكرة فلسفية هو القصص العلمى أو الفلسفى ، فمن الأول كتاب الانسان والحيوان لاخوان الصفا من علماء القرن الرابع وهو مناظرات بين الانسان والحيوان تقرر نظريات علمية كثيرة ، ومن الثانى رسالة حى ابن يقظان للفيلسوف محمد بن عبد الملك بن الطفيل المتوفى سنة ٥٨١ الذى شرح فيه بأسلوب قصصى إنسان الفطرة أو ابن الطبيعة ،

ووفق إلى نظريات فلسفية ذات قيمة فى تطورات هذا الانسان ، وهذان الكتابان وإن ضما إلى سمو الفكرة جودة العبارة ليسا جديرين أن يحملا اسم القصص ، على أن بعض شخصيات الأدباء الفلاسفة من العرب أمكنهم أن يغلبوا الصبغة القصصية على الصبغتين العلمية والفلسفية فى بعض قصصهم كأبى العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩ فى قصته الخالدة « رسالة الغفران » تلك التى لمكانتها فى عالم القصة نسج على منوالها دانتى شاعر الطليان فى قصته « الرواية الآلهية » بعده بثلاثة قرون . وملتن الانجليزى فى روايته « الفردوس المفقود » بعده بستة قرون . ولا يفوتنا أن نذكر للعرب لونا آخر من القصة تغلبت فيه الناحية اللغوية الصناعية على النزعة القصصية هو المقامات وكان بطلها فى العصر الثالث بديع الزمان المتوفى سنة ٣٩٨ وفى العصر الرابع الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ :

هذا ومما تقدم فى تدوين الأدب تعرف النواحى التى مست تاريخ الأدب فى تلكم العصور ، على أنه كما قلنا آنفا لم يستكمل ناحية التاريخ الأدبى إلا فى عصرنا الحديث على شىء من النقص البادى فى كتاب المواهب الفتحية للشيخ حمزة فتح الله ، وعلى شىء من الكمال المقبول فى كتاب تاريخ أدب اللغة العربية للأستاذ حسن توفيق الذى عين الطريق بحق فسلكه من بعده السالكون ، أمثال العلامة جورجى زيدان فى كتابه تاريخ آداب اللغة العربية والأستاذان أحمد الاسكندرى ومصطفى عنانى فى كتابهما الوسيط ، ومن بعد هذين سار الكثير من المؤلفين كصادق الرافعى وحسن الزيات ومحمد هاشم ومحمود مصطفى وكاتب هذه السطور « السباعى بيومى » .

وأخيرا لا زلنا فى تاريخ أدبنا بادئين ، ولازالت الطريق فى تدوينه ذات حاجة إلى تأصيل أصول وتفريع فروع ، تقتضى من العاملين التضامن فى الجهود ، والدأب فى النشاط حتى نصل به القمة بعون الله مسدد خطا السالكين وبه التوفيق .

(يتبع)